«الساعة الخامسة والعشرون»

بقلم سامي عطفه

الى استاذي الدكتور عادل عوا الذي رفع قلوبنا الى افق سقراط،
بحكمته وتواضعه ـ سامي

« ان كل رعب يمكن ان يحدد
وكل حزن له نهاية ما :
ليس في الحياة زمن تكرسه للاحزان الطويلة ؛
اما هذه ، فهي خارج نطاق الحياة ، خارج نطاق الزمن
انها خلود مستمر للشر والطغيان .
لقد تلوثنا بقذارة لا نعرف كيف نغسلها ،
قذارة متحدة بالهوام الخارقة للطبيعة ،
لسنا نحن وحدنا ، وليس البيت ، وليست ،
المدينة الذين تلوثنا .
بل ان العالم اجمع هو الذي تلوث . » (١)

في « الساعة الخامسة والعشرون (٢) ما يثير ، وفيها ما يرعب ، وفيها ايضا ما يؤلم ، ونحن لا نستطيع ان نتمالك انفسنا من الدهشة ازاء الروح التي تبرز من خلال احداثها ، لاننا ، بدافع من اعتدادنا بمدنيتنا ، ومستقبلنا ، لا نجد ما يدعو الى التفكير في ان حضارتنا الزدهرة ،حضارة القرن العشرين ، يمكن ان تنحط الى الظلام والبربرية ،على النحو الذي تؤكده هذه الرواية،فنحن نؤمن بامكان التقدم، ونؤمن بالعلم، بل اننا نؤمن بالتقدم على اساس العلم،من دون ان نتساءل عن طبيعة الصلة بين الانسان والعلم. غير ان جميع الحقائق المعاصرة تشير الى ان العلم والتكنيك قد سبقا الانسان سبقا واضحا ، اذ بينما نجد الطبيعة تقدم ، على نحو رائع ، كل طاقاتها الجبارة ، نجد الانسان ما يزال يندفع بقوة اهوائه مستخدما الطبيعة اسوأ استخدام ، مما يجعل مستقبل الانسان مهددا بالانسحاق . هذه هي المشكلة الاولى من مشاكل العصر .

غير ان هذه ليست المشكلة الوحيدة ، وذلك ان الانسان الذي لم يستطع ان يطور طاقاته الانسانية ، اصبح منجرا وراء الآلة موثقا اليها ، مما يهدد بتحويل حياته النفسية المبدعة الى مجموعة ردود الفعل والعادات الالية ، مما يهدد بمسخ الانسان الى الانسان ـ الآلة . وهذه هي المشكلة ، التي تدور حولها « الساعة الخامسة والعشرون » والتي تندمج بالمشكلة الاولى.

كيف ينبغي ان نقيم التوازن بين العلم والانسان ؟ هل نخضع الانسان لقوانين مستمدة من قوانين العلم ، فنحيل الانسان الى آلة ونعتبر الحرية الانسانية والشخصية الانسانية استثناءين لا بد من التخلص منهما؟ ام انه يجب ان « نلغي » العلم لحساب بقاء الانسان المهدد؟ ام يهب ان نقيم علاقة جديدة بين شخصية انسانية حية متميزة وبين علم متقدم غني بامكانياته ؟

ومن ابرز المزايا التي نجدها اليوم للفكر الحديث ، تلك المقدرة على وضع الاسئلة في مقدمة المسائل التي كانت من قبل تبدو يقينية ، فلقد تصدعت حتمية العلم كما انهارت تلك القيم الروحية المجردة ، ويبدو ان هناك نوعا من البداية الديكارتية من الانسان ، للبحث عن اليقين .

لقد وضعت الازمة الحديثة اليقين المطلق موضع الشك في الفلسفة والعلم والايمان والاخلاق فكل يقين هو نسبي ومؤقت .

ومع ذلك فان العلم يميل الى ان يكون يقينا ، او انه ، على اقل تقدير، يتابع تقدمه باعتباره منتصرا على كل الاعتراضات التي قامت في وجهه ، لان هذا العلم مسلم به من وجهة نظر العقل . انه يرتكز على جملة من الاليات العقلية فانتقاده يعني اننا نثير انتقاد العقل . ولكن يجب الا ننسى ان العلم قد قام في جذوره البعيدة على جملة من التوصيات البيكونيه التي تشير الى وجوب الابتعاد عن الفلسفة باعتبارها جدلا لا يقود الى شيء ، واننا اذا كنا نبغي التقدم وجب علينا ان نعتمد على الملاحظة والتجربة لفهم الطبيعة ومعرفة قوانينها . لان معرفتنا هذه القوانين تمهد للسيطرة على الطبيعة ولكن حينما نخضع نحن اولا لهذه القوانين. هذه هي الحكمة البيكونيه التي انتقلت عبر الاجيال الاوروبية وتفرعت الى اتجاهات ومذاهب شتى ، وكان افضل الوارثين لهذه الحكمة التجريبيون الانكليز والوضعيون الفرنسيون حيث نجد ان الشعار الضمني لهؤلاء جميعا هو ما قاله لوك (لا شيء في العقل سابق للتجربة) ولقد اكد اوغست كونت ان المرحلة الايجابية للانسانية هي المرحلة التي يتخلى الناس فيها عن اوهام الميتافيزياء ويبدأون في دراسة الحوادث لمعرفة قوانينها ، فاليقين الوحيد هو اليقين الذي يقدمه القانون العلمي، ولقد اثبتت « فلسفة » العلوم هذه تفوقها في كافة مجالات النشاط البشري منذ القرن التاسع عشر ، رغم انها كفلسفة لم تلق اهتماما كبيرا بين رجال الفكر .

والامر الذي يعنينا من هذه المراجعة هو ان نقف على نظرة العلم الى الانسان في اطار النزعة الايجابية لذلك يحسن بنا ان نلم بآراء هؤلاء النفسية ، على اعتبار ان علم النفس تاثر كثيرا بالفلسفة التجريبية والنزعات المتفرعة عنها .

يعتبر الاحساس اساس الحياة النفسية عند التجريبيين الذين يرون اننا ناخذ كل معارفنا من العالم الخارجي بواسطة الحواس واننا نركب افكارنا من عناصر بسيطة هي الاحساسات بواسطة قوانين التداعي المشهورة . فالقوانين تتحكم في الحياة النفسية كما تتحكم في

كتاب الشهر

(١) قصيدة للشاعر ت.س. اليوت نقلها مؤلف الرواية ص ٣٧٣ .

(٢) تأليف كونستانتان جيورجيو وترجمة اسرة الترجمة بدار اليقظة العربية في دمشق .

قوانين الطبيعة . ومن الواضح ان هذه النظرية ضيقة وغير منسجمة مع الكشوف الحديثة في علم النفس حيث نرى ان الحياة النفسية حياة خصبة تقوم على الحرية والتلقائية والتطور الدائم . ان الانسان التجريبي الذي نأخذ كمثال عنه تمثال كوندياك ليس اكثر من آلة تتحكم فيها القوانين ، انه انسان عديم الشخصية .

ولقد ساعدت المدرسة الاجتماعية منذ دوركهايم على تهديم جانب اخر من الانسان الفرد حينما اعتبرته جزءا من المجتمع بحيث يمكن تفسير الظاهرات النفسية بالظاهرات الاجتماعية . واذا كانت المدارس الاجتماعية قد جردت الفرد من كل مقوماته فانها لم تنس ان تربطه ربطا محكماً بالقوانين فالظاهرة الاجتماعية يمكن دراستها دراسة تجريبية بحيث نصل الى قانونها العام وقد التقت في اوغست كونت النزعة الاجتماعية بالنزعة التجريبية فاشتد الحصار على الفرد .

لقد اصبح الانسان تجريدا يمكن اخضاعه للقوانين العلمية ، لنفس القوانين النمطية التي تتحكم بالالات ، فهو ليس اكثر من آلة وهذا هو التحول الذي تكشفت عنه النظم الحديثة التي راعت مصلحة المجتمع او الطبقة وضرورة تحقيق التلاؤم بين التنظيم الاجتماعي الآلي بحيث تدخل الآلة في سائر المرافق الانسانية ، واذا كان العلم الحديث قد أحال الانسان تجريدا من التجريدات فان من الطبيعي ان يهمل العلم القيم الخلقية باعتبارها من تركات الانسان القديم وان يستبدلها بالواجبات المفروضة على الفرد باعتباره مواطنا . ان المواطن آلة اجتماعية يجب ان تتوفر لها عدة أمور من أهمها :

١ ـ عدم النظر الى الامور نظرة شخصية ٢ ـ اهمال كل الاعتبارات الاخلاقية الشخصية ـ ٣ ـ تقديس الواجبات التي تقررها النظم والتخلي عن كل ما يتعارض معها . ومن الطبيعي ان تكون الدولة هي المهندس الذي يشرف على تحقيق هذه الاهداف تحقيقا مثاليا ، الدولة كآلة كبرى يعتبر الافراد بمثابة اجزائها الميكانيكية

ولا أعني كما لا يعني تريان كوروغا دولة معينة بل الدولة المعاصرة سواء اكانت رأسمالية ام اشتراكية ، اوتقراطية ام دمقراطية ، الدولة المعاصرة التي لا قيمة لفرد فيها الا بمقدار ما يقوم بوظيفته سواء اكان الفرد عاملا او موظفا او وزيرا .

على هذا ، كما أعتقد ، يثور تريان كوروغا ثورته العنيفة : انه يثور على الغاء الشخص ويثور على هذه العبودية الرهيبة للآلية ، ولكنه يثور اكثر من كل هذا على الحضارة الاوروبية المعاصرة باعتبارها لا أخلاقية لا انسانية ، وبذلك يقترب تريان من شارلي شابلن في « الازمنة الحديثة » حتى اننا نستطيع ان نوحد بعض الاحداث والمشاهد المتشابهة في الرواية والفلم . ويثور تريان ايضا وربما ثار معه شابلن على المدنية المعاصرة لانها بتنكرها للانسان انما تنحدر الى ظلام البربريه « ستحدث توقيفات آلية وتسليات آليه وقتل آلي . لن يكون للمرء حق في الحياة ، بل سيعامل ، وكأنه مكبس او قطعة من الة حتى اذا شاء ان يعيش عيشة انسانية تعرض لسخرية العالم بمجموعه . هل رأيت في حياتك مكبسا يعيش حياة شخصية ؟ » (ص ٥٤)

هذه هي ملامح الثورة الالية الجارفة كما يتحدث عنها تريان كوروغا الشخص الرئيسي في « الساعة الخامسة والعشرون » وهي ثورة فاجعة مريعه لم تكشف بعد الا عن خطوطها الاولية ، انها تحاول ان تتنزل بالانسان الى صف الالات ولكن الانسان سيكتشف انه لن يستطيع ان يتحول الى آلة ومنه تنفجر ماساته في صراع مرير ضد الآلية التي تطوق عنقه.

ان هذه الانتقادات لايمكن بحال من الاحوال ان تقصر على عصر من العصور او مظهر واحد من الحضارة الغربية بل هي انتقادات تتناول الاسس التي تقوم عليها هذه الحضارة . ان الحضارة في مسار تطورها تتعدد مظاهرها وتتكامل شخصيتها من دون ان تفقد الاتصال بين شتى مظاهرها والاسس الذاتية التي قامت عليها ، لذلك نجد ان الحضارة الغربية قد احتفظت بوحدتها رغم انها واجهت سلسلة من الانقلابات غيرت معالمها الاولى وهكذا فاننا حين نتحدث عن الحضارة الغربية يشمل حديثنا احقابا تمتد من القرن الخامس عشر حتى ايامنا هذه من حياة الغرب . ومن هنا تستمد انتقادات تريان قوتها باعتبارها انتقادات تتجه الى الحضارة لا الى مظهر من مظاهرها .

ومن هذا فاننا نجد ان هذه الانتقادات تنطلق من عصر معين هو عصر السلم المسلح الذي سبق الحرب العالمية الثانية لذلك يجب علينا ان نتناول في بحثنا المظاهر العامة لهذا العصر .

سوف نجد انفسنا امام عصر بلغ غاية التعقيد في شتى مظاهره ومشاكله فهو عصر ثورة جديدة اتت في أعقاب الحرب العالمية الاولى التي خلفت بعض الهدوء والامل للناس ، لقد تقدمت الصناعة بعد ازمة كبرى وتوالت الكشوف العلمية وظهر التنافس الدولي من جديد حول المستعمرات والاسواق التجارية والسيطرة الاقتصادية وبرزت المشاكل القومية في القارة وفي المستعمرات وظهرت الشيوعية كدولة عظمى في الاتحاد السوفياتي كما ظهرت النازية كقوة عظمى في المانيا تجر وراءها سيلا من المشاكل ، وقد حاولت النزعة الانسانية ان تثبت اقدامها في مابين الحربين ، لكنها ظلت تفتقر الى القوة الحقيقية باستثناء التأثير الادبي الضئيل الذي احرزته هذه النزعة . لقد كان عصر ما بين الحربين عصر الاتجاهات الكبرى التي نجد في خطوطها الاساسية تفسيرا لكافة المسائل المطروحة . ومن اشد هذه الاتجاهات تأثيرا ظهور النازية التي ما لبثت ان سيطرت في المانيا فخلقت منها دولة عظمى بطاقاتها الحربية والعلمية والصناعية ، لكن النازية ظلت بعيدة عن تفهم الانسان بل ظهرت وكأنها تتقصد الابتعاد عن الروح الانسانية التي أكدتها المباديء الدمقراطية . لم تعترف الناس متساوين فالاجناس البشرية تتمايز في خصائصها العرقية مما يجعلها تنقسم الى أجناس دنيئة ، وفي أعلى هذه الاجناس واغناها في المزايا العرقية يقوم العرق الشمالي الذي تنحدر منه الدماء الجرمنية الصافية . هذا هو الوهم النازي الذي جعل المانيا تنادي بضرورة اخضاع جميع الامم للعرق المتفوق . وهو وهم وان كانت النازية قد حددته ودعمته بجملة من التبريرات الواهية فان المانيا لم تنفرد به واننا بقليل من التمحيص ، نلاحظ ان الاستعمار بشتى اشكاله وصوره انما يرتكز على وهم مماثل يقوم على الزعم بتفوق الانسان الابيض « عبء الرجل الابيض » هذا التفوق الذي نادى به كبلنك يبرر وصاية الدول الغربية واستعمارها غير ان ما يهمنا في اطار بحثنا ، هو الكشف عن نتيجتين من أهم نتائج النازية كنزعة واسعة الانتشار اولاهما النظر الى الشخص نظرة ضيقة فالكائن الانساني المقدس هو الدولة القومية اما الفرد فهو آلة في هذا الجهاز المقدس لا ينظر اليه الا من زاوية واجباته التي تفرضها الدولة .

اما النتيجة الثانية فهي النزعة المعادية ضد الشعوب الاخرى .

اما الاتجاه الثاني فانه الشيوعية التي استطاعت ان تطور روسيا من دولة قيصرية فاسدة منحلة ومتخلفة الى دولة علمانية تتبع احدث الاساليب الحضرية ولكن في اطار المباديء الماركسية اللينينية وهو في رأي تريان كوروغا يعتبر ركوعا روسيا امام حضارة الغرب او فرعا متطورا من هذه

الحضارة يلغي اهم ما في الانسان : الكرامه . ـ لماذا ؟

تتجلى الكرامة الانسانية في مقدار الحرية التي يتمتع بها الفرد فكلما توافرت الحرية للشخص كان أكثر انسانية ، صحيح ان هذه الحرية هي حرية مقيدة وانها لا تعني شيئا بمعزل عن الجماعة لكنها اعتراف باصالة الشخص وحقه في ان يكون متميزا عن الاخرين وغير ملحق بأي شيء فهو قيمة بذاته . والانسان في الشيوعية شيء غير هذا فالشخص منعدم فيها وكل ما هنالك فرد يتمتع بقيمة اقتصادية . انه شخص فرد من طبقه وهذه الطبقة تتكون بحسب الشروط الاقتصادية اما ما يتمتع به الشخص من افكار وعقائد وعواطف ونزعات فليس الا بنية عليا تنعكس من اوضاعه المادية واوضاع الطبقة التي ينتمي اليها . هناك اذن عقلية بورجوازية كما ان هناك ايضا شخصية بروليتارية ، فالانسان لا يملك قيمة انسانية لان اية قيمة من هذا القبيل هي تجريد ووهم . وهكذا تنظر الشيوعية الى الامة لا باعتبارها وحدة انسانية بل باعتبارها وسطا للتناقض والصراع ، هنالك طبقات لا أمة ولما كانت الاوضاع الاقتصادية متماثلة في جميع المجتمعات المتماثلة فان الطبقة تتاخى مع مثيلاتها في انحاء العالم . وهكذا يمكن ان نتحدث عن طبقة عمالية متحدة تتجاوز الحدود القومية ، وهذه هي القاعدة التي ترتكز عليها الثورة الشيوعية العالمية ، لا يمكن بالطبع ان نهمل الحديث عن الانسان في المجتمعات الراسمالية ويمكن ان نعتمد هنا على الرأي الماركسي المشهور الصحيح في انسان الراسمالية، ان نظرة رب العمل الى العامل المنتج هي نظرة تقوم على الاستغلال ، فالانسان هنا قد نزعت منه قيمته ونظر اليه باعتباره جزءا من العمل ورغم ان الحكومات الراسمالية تدعي انها تقوم على ادعاء عريض بتبني الروح والشعارات الديمقراطية فانها تتعرض لنفس التهمة الموجهة الى الشيوعية ، وهي انها تنظر الى الشخص كقيمة اقتصادية وحسب وانها تقوم ايضا على المبدأ الطبقي . هذه الاتجاهات ، لم تعد في فترتنا بين الحربين اتجاهات نظرية بل لقد اصبحت قوى كبرى متشققة تتصارع صراعا على البقاء فكل منها كان وما يزال يرى ان حياته تتوقف على تدمير الاتجاهات الاخرى ، وهذا الصراع كان على السيادة في القارة وفي المستعمرات وفي الصناعة والتسليح . وقد كان لا بد من الحرب الحقيقية التي تكمل الحرب الباردة وقد كانت حربا وحشية ولا انسانية .

اننا اليوم وبعد مرور عشرين عاما على الفترة التي انبثقت منها «الساعة الخامسة والعشرون » نجد اننا نواجه احتمالا بقيام حرب اكثر ضراوة وعنفا ، واننا لا نمتلك اي ضمان لاستمرار السلم لان الحرب الثانية تركت مشاكل وافرة في عصرنا الراهن سوف تعالج بنفس الروح التي عالجت مشاكل ما قبل الحرب . اننا لا نستطيع ان نحلم كأيوهان موريتس بسلام ساذج هو تجاهل للمسائل القائمة .

*

ليس ثمة شك في ان « الساعة الخامسة والعشرون » تعتبر واحدة من خير الروائع الادبية التي صدرت عقب الحرب العالمية الثانية ، بل اننا نحس تجاهها بجو مماثل لاجواء شكسبير وجوته ودستويفسكي ،وفيها ما يجعلنا نحس بالمعاني العظيمة التي تنطوي عليها سنفونية بتهوفن التاسعة باعتبارها تنشد الحرية والسلام والبطولة الخلقية التي ما تزال شعائر الانسانية الحقة ، واذا اراد القاريء تقريبا اخر للرواية فهنالك أسطورة همنغواي الرائعة « الشيخ والبحر » .

هذا ما نحسه ازاء « الساعة الخامسة والعشرون » رغم اننا حينما نقرأ التفاصيل نكاد نحس بأننا امام كتاب من كتب التاريخ يحتوي من المفاجآت ، فالقاريء يدرك ان المرارة هي كل ما تنطوي عليه الصفحات التالية من الرواية . لقد قرأ الناس في الصحف كثيرا عن حوادث مماثلة ، والعقائد السياسية ، ولكن بينما تعرض الصحف وكتب التاريخ هذه الوقائع قرأوا عن التدمير والقتل ومعسكرات الاعتقال ، وقرأوا ايضا عن النظم عرضا حياديا مشفوعا بالكشف عن الاسباب المباشرة فان السيد كونستنتان جيورجيو يكشف عن المعنى العميق الذي يكمن وراء هذه الوقائع ، الحوادث ليست مقصودة بذاتها في الرواية فقد وقع مثلها في الماضي وسيقع مثلها في المستقبل . فالسيد جيورجيو في روايته يكشف لنا عن العوامل التي تنمي الرعب واليأس والاشقاء والعدوان في قلوب الناس وهي السمات الملازمة لعصرنا .

ليست « الساعة الخامسة والعشرون » اذن عملا ادبيا مجردا ، وهذا تنبيه يجب ان يتذكره القاريء دائما فهي أكثر من رواية ، انها كما يقول تريان « ستكون كتابا حقيقيا لا يمت الى الادب الا من حيث الاسلوب فقط ، اما الاشخاص فانني سانتقيهم من الحياة الحقيقية » (صفحة ٤٦) وهو يضيف الى هذا القول كلماته البائسة التي تكشف منذ البداية عن مضمون الرواية « الساعة الخامسة والعشرون ، اللحظة التي تكون فيها كل محاولة للانقاذ عديمة الجدوى ، بل ان قيام مسيح لن يجدي فتيلا ، انها الساعة الاخيرة بل هي ساعة بعد الساعة الاخيرة ، ساعة المجتمع الغربي ، انها الساعة الحاضرة ، الساعة الدقيقة المضبوطة » (صفحة ٥٧).

*

تبدأ حوادث الرواية مع ما يسميه تريان ثورة الرقيق الفني ، وهي ثورة يرمز بها الى طغيان الالية ومقاييسها على القيم والمقاييس الانسانية في المجتمعات الغربية . اما الرقيق الفني فانه الالة التي دخلت كافة المرافق البشرية ، وقد نستغرب نحن هذا لاننا نعتبر من دواعي التقدم ومظاهره ان يزيد الانسان من اعتماده على العلم والالة، ولكن الانسان لا يستطيع استخدام الالة الا بخضوعه المسبق لقوانينها ،وهذا الخضوع هو اساس الخطر الذي يتهدد الانسانية ويؤكد تريان ان الناس لم يدركوا بعد مغزى هذه الثورة ، لقد شعروا بخطر غامض ، بكارثة توشك ان تقع ، لذلك حاولوا الفرار من الخطأ « سوف نشعر بالخطر رويدا رويدا وسوف نحاول الفرار منه والاختفاء . ان بعضا من الناس بدأوا منذ الان يختفون كالحيوانات المتوحشة عندما تشعر بهبوب العاصفة . اما انا فانني سأعتزل في الريف ، ان اعضاء الحزب الاشتراكي يدعون ان الفاشيين هم المسؤولون وان الخطر لا يمكن ان يزول الا بزوالهم . ان النازيين يريدون حماية انفسهم بذبح اليهود ، لكن هذه التصرفات ليست الا دلائل الخوف الذي يشعر به كل كائن حي ازاء الخطر ، ومع ذلك فان الخطر في كل مكان هو هو، غير ان انتفاضة الناس ورد الفعل لنفوس البشر ازاء الخطر هما اللذان يختلفان » (ص ٤٨)

هكذا يفسر لنا تريان الخوف الجماعي لدى الناس ثم يدعي بأن الحوادث سوف تنال البشر جميعا ، وستناله هو ، بالذات ، لذلك فانه سيدون الحوادث التي تقع له ولاصدقائه ومعارفه في « الساعة الخامسة والعشرون » من أجل ذلك ينتقل بنا الى « فانتانا » القرية الرومانية حيث يحيا الناس ـ كما في جميع الارياف ـ بعيدين عن الحوادث مهتمين بأعمالهم وحياتهم وسعادتهم وكمثال عن هؤلاء القرويين نجد الشاب ايوهان موريتز يتهيأ للسفر الى امريكا حيث يعمل سنوات يعود بعدها بثروة صغيرة تساعده على الزواج من سوزانا ابنة ايورغو

ايوردان وعلى شراء حقل صغير وبناء بيت ، لكنه في اللحظة التي كان يودع فيها سوزانا يكتشف ايورغو العملاق علاقتهما فيضطر موريتز الى العدول عن السفر والى الفرار بسوزانا من وجه العملاق الذي يدفعه الحقد على ابنته الى الانتقام من زوجته ايولانا ، فظل يضربها ويدوسها بقدميه حتى هشمها تهشيما ، مما دعا السلطات الى اعتقاله . لقد كان العملاق مهاجرا المانيا يحذر الرجال ويقضي وقته في الصيد . كان لا يحب الا جياده العربية ولا يثق الا بها ولذلك فانه ذهب يستشيرها فيما اذا كان قد اخطأ بتهشيم زوجته وفيما اذا كان ينبغي له ان يذهب بها الى الطبيب ولعل خير ما يمكن الكشف بواسطته هو ما فكر فيه المحقق جورج داميان « ان القانون سيعاقب ايورغو ايوردان لانه ضرب زوجته ضربا مميتا ، ان ضربه زوجته وواقع حبه العنيف لخيوله ذلك الحب الذي لا يشعر به نحو البشر ليس اكبر خطيئاته ، بل انه التأثير المباشر لعقلية معينة، انها البربرية ! هذا هو خطأ ايورغو ايوردان الوحيد ، انه ككل البرابرة يمقت البشر حتى يبلغ به المقت حد افنائهم ، ان اي قانون في العالم لا يمكن ان يعاقب المرء على بربريته رغم ان كل الجرائم الاخرى تنتج عنها ، ان البربرية لا تعتبر غير قانونية الا في مناسبات محدودة جدا ومبينة » (ص ٤١) ولقد افرج عن ايورغو ايوردان حينما بدات الحرب اذ ابدى رغبته بالتطوع في جيوش الرايخ باعتباره من الرعايا الالمان ، ويلتحق ايورغو بفرقته بعد ان يتبرع بكل ثروته للرايخ الالماني . اما موريتز فانه يبدأ حياته من جديد في فانتانا فيشتري الحقل بالمال الذي تبرع له به تريان كوروغا ويبني البيت ويصبح ابا وزوجا سعيدا ، لكن هذه السعادة سرعان ما يدمرها امر طارىء ، ذلك ان رئيس مخفر سانتانا مر ذات يوم ببيت موريتز ، حيث كانت سوزانا الجميلة تجبل الطين باقدامها فوقف يتامل فخذيها العاريين الابيضين ، وقد حاول ان يدخل ولكن سوزانا منعته من الدخول ولما ذهب الدركي كان يفكر في الامر الذي اتى اليه من السلطات بمصادرة اليهود والاشخاص المشبوهين في منطقته ، وسرعان ما ذهب ليحرر امرا بمصادرة أيوهان موريتز ومارکو كولدنبرك ابن التاجر اليهودي الذي عاد مؤخرا من باريس يحمل الدكتوراه في الحقوق، وذلك رغم ان موريتز كان مسيحيا رومانيا ، ولكن منذ ذلك الوقت تبدأ حياة موريتز في معسكرات تشغيل اليهود في رومانيا ، ولقد اصبح يعتبر يهوديا لدى السلطات بصورة آلية ، ولم تجد الوساطات التي قام بها الكاهن كوروغا لدى المحافظ ولا وساطات تريان لدى وزير الدفاع في الافراج عن موريتز . لقد ضاع موريتز بدون مبرر وبصورة آلية . ربما كان مارکو غولد نبرك لا يقل أهمية في الرواية عن ايورغو ايوردان ، انه يوحي الى القارىء بانه اقرب ما يكون الى « الوحش المفترس الآلي » الذي يتحدث عنه تريان كوروغا ، لقد عاد مارکو من باريس يحمل دكتوراه الحقوق ولكن ابرز صفاته كانت الصفاقة والقسوة والمشاكسة ، وقد قبض عليه بموجب الاوامر الخاصة بمصادرة اليهود وارسل بصحبة موريتز الى معسكر لتشغيل اليهود يحفر قناة على نهر توبولبتزا ، وقد حاول مارکو الفرار ، ولما فشل اعيد الى اعمال الحفر ، لكنه رفض العمل معتبرا بان هذا العمل يتنافى ومعتقداته السياسية « ان حفر القناة سيعرقل الجيش الاحمر ، وانا شيوعي لذلك فانني لا اريد باي شكل من الاشكال ان اضع العراقيل في طريق رفاقي » (ص ١١١) بذلك يكشف لنا مارکو عن منطلقات حياته وقد لا نرى غبارا على هذه المنطقة اذا نظرنا اليه من خلال الاحداث الاعتيادية ، فمارکو بحبا من اجل قضية محددة ، ونحن غالبا ما نكيف افعالنا على هذا النمط . ومن جهة النظر هذه يجب علينا ان نقدر جراة مارکو واخلاصه للقضية ، ولكن مارکو في تلك اللحظة التي رفض فيها العمل باعتباره شيوعيا كان انسانا مصادرا ، او انه لم يكن يعتبر كانسان عادي اطلاقا ، وهذا هو الوضع الذي كان على مارکو ان يرفضه ، كان عليه ان يرفض العمل باعتباره عملا غير انساني وغير عادل ، لكن مارکو لم يعترض على مصادرة الرجال وزج اليهود دون مبرر في معسكرات التشغيل رغم ان هذا الاجراء النازي كان بربريا مما يجعلنا نظن ان مارکو لا يرى غبارا على هذا الاجراء ، لو انه كان يقف في صف النازية ، انه لا غبار عليه لولا انه يتعارض مع قضيته كشيوعي يعمل لانتصار لجيش الاحمر، وهذا الظن تؤكده الاحكام البربرية الطائشة التي اصدرها مارکو بحق الابرياء حينما اصبح رئيسا لمحكمة البلاشفة في فانتانا . وهكذا فان مارکو بعد حوار طريف مع العجوز لانجيبل رئيس الفرقة اليهودي الذي حاول أن يقنع مارکو بالعمل في الحفر ، يفضل ان ينظف المراحيض يوميا على اعمال الحفر ويدرك العجوز ان مارکو ليس الا متعصبا « انك متعصب ، وكل متعصب ليس الا وحشا ثائرا » (ص ١١٣)

ويجيب مارکو : « سانظف المراحيض ، انه نشاط انشائي . ان العمل في القتال اجرامي فاشي ومعارض » ولكن العجوز الطيب ظل يحاول اقناع مارکو ليخلصه من القاذورات ، غير ان مارکو تخلص منه بعدة ضربات من معوله هشمت رأسه وبعد ذلك نقل مارکو الى سجن الاشغال الشاقة واستقر فيه الى ان سقطت رومانيا في يد الشيوعيين الذين جعلوا منه قاضيا لمحكمة الشعب البولشفية في فانتانا . لقد كان هناك شبه بعيد بين مارکو وايورغو ايوردان وهذا ما ادركه موريتز حينما كان يرى في عيني مارکو تلك النظرة الزجاجية الباردة

حين نلتمس السنة الجامعة لاشخاص الرواية نجدها في الولاء المطلق لقضية من القضايا ، وكنتيجة لهذا الولاء يقوم بين هؤلاء الاشخاص تعارض مطلق : فمارکو شيوعي ، وايورغو نازي ، وهناك ايضا القس الكسندرو كوروغا المسيحي المستقيم وابنه تريان الذي يعطينا مثلا حيا عن النزعة الانسانية المعاصرة . غير انه اذا نظرنا الى الشيوعية والنازية باعتبارهما فرعين متطورين من حضارة الغرب ، امكننا ان نجد الصلة المتينة بين مارکو وايورغو . ولقد ادرك موريتز ذلك بصورة غامضة ومشتتة فيالنظرة التي تنطوي على القسوة والشر والعنف ، اما في راي المؤلف فان الشخصيتين تمثلان تمثلا وافيا طبيعة الشر الذي يتسم به عصرنا الالي. ان الذي يحمم بين مارکو وايورغو هو التعصب والعنف وعبادة النظام واللا انسانية ، لقد قتل الاول لا نجيل الوديع السمح ، بينما قتل الثاني زوجته الرقيقة .

هاتان الشخصيتان تقفان على طرفي نقيض مع القس الكسندرو كوروغا وولده تريان ، اما الاول فانه كاهن ارثوذكسي مثقف ، واما الثاني فانه بنزعته الانسانية كسقراط العظيم يحمم سمات النبوة الى قوة الفكر ، وهو كابنه يفكر تفكيرا مضنيا في خلاص الانسانية .

كان القس في شبابه متحمسا لفكرة مرافقة بعثة من المبشرين تقصد المستعمرة الارثوذكسية في بلاد مشيغان في امريكا ، وكان يعلق كثيرا من الامال على هذه الهجرة ، لكنه تراجع في اللحظة الاخيرة حينما التقى بزوجته اذ اصبح مرتبطا بها وبرومانيا ، فاقام في فانتانا حيث اصبح راعيا لكنيستها ، لقد كان القس يرى في زواجه على هذا النحو الذي منعه من السفر ما يشبه تدخل القدر في حياته ، فآمن بان القدر هو الذي يوجه خطاه لا ارادته الشخصية ، لذلك لم يعن بعد ذلك برسم الخطط ، ووضع مسيره في يد القدر ، فرفض منصب استاذ في الجامعة

واستقر في فانتانا يحيا بين مكتبته وحديقته وكنيسته ، ولم يتمرد الكاهن، بل لقد مضى واهبا حياته للاحسان ، واكتفى من حلم الذهاب الى امريكا بمد يد المساعدة الى الشبان المسافرين اليها ، كان يعتقد انه كلما فكر في امريكا كان في تفكيره هذا لون من عدم الاخلاص لزوجته ، ولقد كان يخفي مساعدته عنها . لقد كان الكاهن يدرك الامور كما ادركها تريان ولكن من وجهة نظره كمسيحي مثقف ، فحينما سأله وكيل النيابة :

ـ يا أبانا ، اذا تحققت نبوءة تريان وكان الانسان مقضيا عليه ان يعامل كالرقيق فهل تستطيع الكنيسة عمل شيء في مصلحة المجتمع الحاضر ؟ اذا كانت الكنيسة تعجز عن انقاذ المخلوق البشري في هذه الساعات الحرجة ، فماذا ستكون مهمتها عندئذ ؟

فكر الكاهن الكسندرو فترة ثم قال : « ان الكنيسة لا تستطيع حماية المجتمعات ، بل انها تضمن سلام الاشخاص الذين تتألف منهم تلك المجتمعات » (ص ٥٨)

هذه الاجابة تعتبر من اهم ما ورد في الكتاب لانها تحدد تحديدا واضحا قيمة المسيحية كحل معروض للازمة التي يتخبط فيها الغرب ، ان عجزها عن حماية المجتمعات يجعلها عاجزة عن حل الازمة ، وذلك لان الحضارة المعاصرة بمعظم اتجاهاتها (النازية ، الشيوعية ... الخ) تميل تدريجيا نحو الغاء الشخص لحساب المجتمع ، ان الحضارة المعاصرة لا تخلق اشخاصا متمايزين مستقلين بل افرادا متماثلين هم اعضاء في جهاز اعلى، ان المسيحية لن تجد الانسان الشخص حتى تضمن له السلام ، اما الرجال النمطيون اشباه الالة فانه لا حاجة بهم الى السلام ، واذا فان المسيحية ذاتها تعتبر مهددة بكيانها الروحي، رغم ان بقاءها كجهاز اكليركي ومجموعة من الطقوس سيظل امرا مسلما به رغم الحوادث وبحكم الاستمرار وحده ، ستكون المسيحية اذن بمثابة عزائم لا اكثر واظن ان الكاهن الذي ادرك هذه الحقيقة كان ضمنيا يؤمن بما آمن به ولده تريان .

وعلى أية حال سوف نكبر الكاهن ، وهذا بالطبع لن يكون بسبب كوننا متمذهبين بل لان شخصية الكاهن وضعت كمثال للاستقامة ومتانة الخلق وصفاء العقل ، انه لا يثار بالمواقف الشاذة ، فهو في احلك الساعات حينما دخل البلاشفة رومانيا واستحيوا نساءها وشنقوهن ، لا ينسى ان يقرر امام الثائرين في وجه الروس : « ان الكنيسة لا تستطيع دفع المسيحيين للقتال من اجل الحصول على سلطة زمنية » او ان يجيب على اسئلتهم ببساطة : « اذا امر محتلو البلد المسيطرون عليه ان اصلي من اجل ستالين كما صليت حتى الان من اجل الملك فانني سأخضع وامتثل، انني اعرف ان ستالين ملحد كافر غير ان الكفرة ليسوا الا آدميين فاذا كانت نفوسهم محملة بالخطايا فذلك لانهم تاهوا بعيدا عن حظيرة المسيح، ان الكاهن ينبغي ان يصلي من اجل كل البشر وخصوصا من اجل النفوس الخاطئة » (ص ٢٧١) ثم ردف : « ان الكاهن يصلي كذلك من اجل اولئك الذين يناضلون في الغابات والجبال ليس ايام الاعياد فحسب بل مرتين كل يوم ، لان حياة هؤلاء المكافحين في خطر دائم ولانهم في حاجة الى صلوات الكاهن ورحمة العذراء.»

ران الصمت على الحشد وفجأة قال ابوستول كازيل :

ـ اذا صليت مرة واحدة من أجلنا اعدموك رميا بالرصاص !

ـ ان هذا ليس سببا وجيها لاكف عن الصلاة من اجلكم ، ان الموت لم يرهب مسيحيا قط »

لقد كانت حياة الكاهن منسجمة مع اقواله ، فحينما انسحب الثائرون الى الغابة ودخل البلاشفة فانتانا استدعي الكاهن ليقف امام محكمة الشعب وقد حكم عليه ماركو بالموت ثم اطلق عليه الرصاص في منتقله ليلا ، ولكن اريستيزا والدة موريتز حملته بعيدا وسلمته الى قافلة المانية كانت تتراجع ليعنوا بموته ذلك الوقت يعيش القس متنقلا بين معسكرات الاعتقال الالمانية والروسية والامريكية وقد فقد ساقيه ، ويموت في النهاية بعد ان يجتمع بولده وصديقه موريتز في احد المعسكرات.

* * *

ليس تريان كوروغا « بطل رواية » على غرار ايفان كارامازوف او فاوست او هملت ، وذلك لانه ، كما نحس احساسا بديهيا ، شخص يحيا في صميم عصرنا ويحس بمشاكله الكبرى وازماته ، ويرسم لنا تلك الذهنية الحديثة القلقة التي نبعت منها افكار مونييه وبرداييف . ان كلا من كارامازوف وفاوست وهملت هو نسيج وحده ، او هو وليد تجربة شخصية محددة ، قد لا يكون لها اي طابع جماعي، اما تريان فانه وليد تجربة شاملة لاجيال عديدة ، ويمكننا بقليل من الاحتياط ، ان نضع اي رجل مثقف معاصر في مكانه ، كي يفكر ويتصرف على غراره .

كان تريان ، في الفترة التي سبقت حوادث الرواية ، يحيا في مركز المقاطعة حياة الفنان الناجح ، منصرفا الى الشعر والتأليف الروائي ، وقد كان يحضر الحفلات التي تقام في الاوساط الثقافية والسياسية ، حيث التقى باليونورادست، وهي حسناء يهودية مثقفة تكتم نسبها اليهودي. احبها تريان حبا عميقا وعرض عليها الزواج لكنها رفضت لانها كانت تكرس حياتها للصحفية ودار النشر اللتين كانت تملكهما ، ولم يعترض تريان لانه كان يقدر موقفها ويحترم ارادتها .

ولم ينس تريان ان يزور والديه في « فانتانا » كلما تيسر له ذلك ، فقد كانت تربطه بوالديه وخاصة بوالده الكسندرو محبة وصداقة راسختان . هذا هو كل ما تقدمه الرواية لنا عن حياة تريان الشخصية، ويمكن لنا ان نضيف الى ذلك ان تريان رجل جمع استقامة الشخصية وبساطتها كريفي الى عمق الثقافة والثقة بالذات مما يتصف به الرجال الموهوبون .

سوف يسهل علينا ان نكشف عن اتجاه تريان وذلك بالمقارنة مع الاشخاص الاخرين في الرواية ، وقد يكون اسهل من ذلك بكثير ان نتتبع اقواله بدقة واناة . لكننا لن نعرف تماما وبصورة سليمة هذا الاتجاه الا اذا عدنا به الى عصر النهضة بالذات . اذ من السهل جدا ان نسجل هكذا « ان تريان انساني » ونقف عند هذا الحكم السطحي تاركين قضية الرواية غامضة . لان من الملاحظ ان الانسانيين متعددو الاتجاهات ، فقد تكون النزعة الانسانية دينية او ملحدة وقد تكون سطحية لا تتجاوز العواطف والاحساسات المباشرة وقد تكون مذهبا يتعمق الامور ويقدم لنا بناء فكريا متميز الشخصية .

هذه النزعة المحددة التي ينطلق بها تريان كوروغا لا تقربه من اي من النزعات المعاصرة ، فهو لا يمكن ان يصنف مع المثاليين او الواقعيين ، واذا اقترب قليلا من التفكير الوجودي فانه يبدو كتيار منفصل بنبثق من القرن السادس عشر حيث الايمان الساذج بان الانسان هو محور الحقيقة والوجود وان كل تدبير يجب ان يراعي هذا المبدأ . وحينما ابتدأ الناس منذ القرن السابع عشر يبحثون عن الطرق التي تقود الى السعادة الحقيقية ، اهتدوا مع بيكون الى ان العلم هو الدليل الوحيد الى هذه السعادة ، فبدأ منذ ذلك الحين اهتمام المفكرين بجانب واحد من الانسان وهو العقل باعتباره الالة التي توصلنا الى معرفة المطلق في مجال العلم، ولكن هل العلم يقيني ؟ ـ ان قيمة اليقين العلمي كما يرى برغسون تتبع قيمة مبادىء العقل فاذا كانت هذه المبادىء من اصل عملي فان العلم

لا يمكننا في الكشف عن الطبيعة العميقة للوجود ، بل يمكننا من معرفة المادة ومن التاثير عليها فقط . اما معرفة المطلق فانها لا تكون بالعلم والعقل وانما بقوة اخرى هي الحدس الذي ينقلنا الى صميم الوجود .

ان تريان يعتبر كبرغسون ثائرا في وجه العقل والعلم والقوانين الجامدة التي تفرض على الحياة ، غير انه لم يكن يهدف كبرغسون الى انشاء مذهب فكري جديد في المعرفة والوجود . بل كان يريد ان يحرر الحياة الانسانية من الجمود الذي ادخلته عليها المدنية الالية ، فالانسان كائن قوامه الحرية والتطور والعفوية ، ولكن المدنية الحديثة نزعت من الانسان كل هذه الخصائص ونظرت اليه باعتباره آلة ، وهذا ما يقوله تريان وهو يتحدث الى زوجته في أحد المعتقلات الامريكية « ان الغرب ينظر الى الانسان من الوجهة الالية ، اما الانسان المخلوق من لحم ودم وعظم ، القادر على الشعور بالفرح والالم فانه غير موجود ، ولهذا السبب فان واقع توقيفنا واحتفاظهم بنا في السجن بل واعدامنا غدا اذا ارادوا ذلك لا يمكن ان يعتبر جريمة لو كان متعلقا ببشر من لحم وعظم ، غير ان المجتمع الغربي عاجز عن الاعتراف بالرجل الحي، وهو عندما يوقف شخصا او يقتله فانه لا يوقف شيئا حيا بل رقما وشعارا ، فاذا راعينا المنطق الصحيح وجدنا ان هذا الجرم لا يمكن ان يعزى الى المجتمع لان اية آلة لا يمكن ان تتهم بالقتل، ولا يمكن لاحد ان يطلب الى آلة معاملة الانسان معاملة تنطبق على ميزاته الشخصية » (ص ٣٣٢) ثم يضيف الى ذلك « ولكن الانسان لا قيمة له في المجتمع الالي كما في المجتمعات البربرية واذا كانت له بعض القيم فانها تافهة ومن ذلك يتضح انك لم توقف » .

اين هي اذن السعادة التي وعدنا بها بيكون؟ انه لا سعادة في مجتمع تنعدم فيه القيم ويتلاشى به الانسان، غير ان المسألة ليست مسألة سعادة، بل انها مسألة ما اذا كان المجتمع الغربي يعترف بالانسان ، ويمكن من هنا ان يذهب تريان الى النتائج البعيدة وهي ان المجتمع الذي لا يعترف بالانسان انما هو مجتمع ينحدر الى البربرية وذلك لان اعتبار الآلية للانسان كحرية وعفوية انما يشبه اعتبار البربرية له . ولعل القارىء يذكر كيف ان أيورغو ايوردان ذهب يستشير خيوله في مداواة زوجته ، وكما انه لا يمكن لاي قانون ان يعاقب المرء على بربريته رغم ان كل الجرائم الاخرى تنتج عنها كذلك لا يمكن ان يعزى اي جرم الى المجتمع الغربي لان اية آلة لا يمكن ان تتهم بالقتل . ومن الواضح ان تريان يضع الآلة كشيء معارض للانسان او كشي معاد للانسان يحاول ان يطغى عليه ، وهذا الصراع العنيف الذي يدور بين الانسان والآلة والذي يؤلف مأساة اوربا المعاصرة صراع سينتهي الى انتصار الالة ، مما يخضع الانسان لقوانين الالات « الرقيق الفني » ومن هذه القوانين : الالية والمماثلة واغفال الذات (ص ٥١) ويستطرد تريان في ايضاح فكرته عن ثورة الرقيق الفني وسيطرته فيؤكد ان العبيد الفنيين يحتفظون ايضا بمزاياهم ويعيشون حسب شرائع صلبة لا تتبدل ، والانسان مرغم على معرفة عاداتهم وقوانينهم وتقليدها ليستطيع استخدامهم والافادة منهم ، اننا في حدود مشاعرنا الانسانية نابى الاعتراف بهذه الواقعة « لكننا سنتخلى يوما عن انسانيتنا » ونعتنق اسلوب الحياة المطبق على عبيدنا الفنيين وستكون دلالة هذا التخلي عن الانسانية احتقار الكائن » .

لان الاحتياجات في عصرنا احتياجات ميكانيكية وليست انسانية ولذلك « فان المخلوقات البشرية مرغمة على الحياة والتصرف وفق قوانين فنية غريبة عن القوانين الانسانية ، ان اولئك الذين لا يحترمون قوانين الالة التي تتساوى مع القوانين الاجتماعية يعاقبون ، والكائن البشري الذي يعيش في أقلية يصبح مع الوقت اقلية بروليتارية فيحذف اسمه من المجتمع الذي ينتمي اليه والذي لا يمكن ان يعود اليه الا بعد التخلي عن طبيعته الانسانية فينجم لديه بذلك شعور بالدونية ورغبة في تقليد الآلة والتخلي عن مزاياه الانسانية » (ص ٥٣) ثم يضيف تريان « ولعل هذا العصر هو الفترة الاكثر ظلمة في تاريخ البشرية اذ لم يحدث حتى الان ان احتقر الانسان الى هذا الحد . لقد كان الانسان في المجتمعات البربرية مثلا اقل قيمة من حصان وهذا ما يحدث في عصرنا عند بعض الشعوب او بعض الاشخاص » (ص ٥٤) فالقيمة الوحيدة في عصرنا للحياة البشرية هي كونها مصدر حركة .

وهكذا يبدأ تريان في تدوين فصول « الساعة الخامسة والعشرون » من دون امل شاعرا في ذاته بخوف جارف من انه قد لا يستطيع انهاء كتابه لانه عرضة لان يختفي في اية لحظة ودون اي مبرر .

*

تعرض « الساعة الخامسة والعشرون » امثلة مريعة على تفشي ما يمكن ان نسميه بالظلم المصنوع او البربرية المنظمة او الشر الآلي وذلك حينما تبدأ في عرض صور عن معسكرات التشغيل ومعسكرات اسرى الحرب ، حيث نرى صورة مماثلة لـ « ذكريات بيت الموتى » بما تعرض من الالم والشقاء الانسانيين ومن الوان التعذيب والموت والانحطاط .

غير اننا اذا نظرنا الى الرواية من هذا الجانب الذي تعتبر من خلاله عملا مماثلا « لذكريات بيت الموتى » لم نخرج منها الا باخلاقية فردية وان كانت عميقة على غرار اخلاقية دستويفسكي تجد في الالم البلسم الذي يطهر كل الوان الخطيئة والاثم ، وعند دستويفسكي لا بد من ان ننطلق من الخطيئة الى الخلاص ، اما « الساعة الخامسة والعشرون » فانها تعرض الما وشقاء لا مبرر لهما : انهما لا يستندان الى خطيئة ، فالعذاب الذي ينزل بالناس هنا عذاب بربري غير معقول ولا مبرر حيث نجد الهوة الفاصلة بين « الساعة الخامسة والعشرون » و« ذكريات بيت الموتى » ان اي مسيحي لا يمكن كمسيحي ان يمنح موريتز السلام الذي يحن اليه وذلك لان موريتز لم يقارف الاثم فهو بريء وليس لله دخل في آلامه ، لقد صرح الكاهن الكسندرو كوروغا بشيء من ذلك « ان الكنيسة لا تستطيع ضمان سلام المجتمعات ... » واظن ان الكاهن نفسه كان يدرك تماما انه انما يقف كانسان وحسب امام محكمة البلاشفة في فاتنا وذلك لان الشر الالي الذي تكلم عنه تريان مفقود من السجل المسيحي الرسمي للشرور والاثام ، وكذلك فان اسباب الحوادث كما يعرضها الكاتب تعتبر حيادية بالنسبة الى الكنيسة .

وقد يكون افضل ان نقارن بين التعذيب المعاصر والتعذيب البربري في العصور الوثنية الغابرة ، رغم اننا لن نجد اي تفسير قديم للعبودية الحديثة ، لا شك في ان تاريخ الشعوب القديمة تاريخ الاباطرة والغزاة والفاتحين يقدم لنا أمثلة قوية على استمرار السلوك البربري وعلى تحكيم المنفعة في كل المجالات ، ولكن الرحمة كانت تظهر على الاقل في معاملة القريب والاتباع ، اما التعذيب فكان ينال الخصوم وحدهم . بينما التعذيب الحديث ينال الجميع دون استثناء. ونستطيع الان طبعا ان نفكر في الكيفية التي انتزع فيها موريتز من حياته الشخصية وصودر كما تصادر الدواب والعربات ، وان نفكر ـ رغم قوانين المنشأ النازية ـ في الكيفية التي صودر فيها اليهود وسيقوا الى المعسكرات ونستطيع ان نتذكر كيف ان السلطات رغم انها كانت تملك كل الادلة على ان

ـ التتمة على الصفحة ٧٧ ـ

الساعة الخامسة والعشرون

ـ التتمة من الصفحة ٣٢ ـ

موريتز روماني لا يهودي ظلت ترى ان الاحتفاظ به كيهودي امر طبيعي تماما . ان مصادرة اليهود ، بالاضافة الى ذلك ، وتعذيبهم لمجرد كونهم يهودا دون النظر فيما اذا كان كل منهم قد اقترف جرما موجبا للعقوبة، يجعلنا نعتبر انمصادرة موريتز كانت طبيعية جدا بالنسبة لسلطات لا تسير بموجب الشرائع الانسانية ، ويؤيد صحة هذا الرأي ان الاعتقالات عمت الجميع فقد سيق جميع الاشخاص الذين عرفناهم في الرواية الى المعسكرات ، هذا باستثناء الذين قتلوا على يد الشيوعيين ، وقد تنقلوا جميعا بين جميع المعسكرات الرومانية والالمانية والروسية والامريكية . لم يكن التعذيب اذن مقتصرا على اليهود وحدهم ولم تكن المعسكرات كلها نازية ، ففي معسكر واحد نجد اشخاصا ينتمون الى قوميات مختلفة ويتكلمون لغات مختلفة ولكنهم يتعذبون جميعا بنفس الطريقة ، كان الناس يتألمون في جميع المعسكرات ويتقدمون بشكاواهم ويشرحون ظروفهم الشخصية ولكن لم يكن هنالك من هو على استعداد للاصغاء اليهم . وهكذا نفهم طبيعة هذا الشر ، فالانسان قد جرد من ذاته كشخص وجرد من قيمته المطلقة التي اعطيت اليه مع النهضة وجرد تبعا لذلك من كرامته .

ان تعبير «الغاء الشخص» هو من انسب التعبيرات للدلالة على المشكلة ، ويمكن ان نتساءل : لمصلحة اية جهة تم الغاء الشخص ؟ وحسبما يرى تريان نلاحظ ان ذلك قد تم لمصلحة التوافق مع الاله هذا التوافق الذي يقرر الغاء الحرية والابتكار في الانسان كما يستلزم تكتيل الناس في جماعات متسعة مع الاحتياجات الآلية مما يجعل مردودها العملي متآلفا ومنسقا ، الروح السارية في المجتمعات المعاصرة هي الروح الجماعية ولذلك فان كل شيء يتم باسم الجماعة ولكن أية جماعة ؟! انها الجماعة التي قتل كل شخص فيها واعتبر مجرد جزء من مجموعها وهذا يؤدي الى سيادة نوع من القانون لا يقوم على الخلق وانما يقوم على الاحتياجات المادية العامة كما لاحظنا ذلك في مطلع هذه الدراسة .

***

ان اشخاص الرواية يتفاوتون في وعيهم للمشكلة التي عرضها تريان ولذلك تفاوتت مواقفهم : فبينما نجد موريتز يحلم بسلام ساذج ينهي مأساته الغامضة وهو بذلك يعطينا فكرة عن موقف الشخص العادي الذي تشغله احتياجاته اليومية المباشرة والذي تقوم الحياة في نظره على سلسلة من العلل الصوفية الغامضة ، نجد القس الكسندرو كورغا يدرك تماما انه عاجز عن مواجهة المشكلة كمسيحي .

ونلقى تريان الذي يعي المشكلة تماما ويدرك ان الحوادث ستسير على طريق محتومة نحو تفاقم الازمة . فانه رغم معرفته هذا كان يأمل قبل انتقاله الى المعسكرات الامريكية بان امريكا قد تقوم بمعجزة ولكنه خلال اقامته بالمعسكرات الامريكية يتبين ان الامريكان لم يكونوا يختلفون عن الروس الا اختلافا يسيراً ، في وجهة النظر . ويبلغ اليأس بتريان حدا لا يستطيع معه ان يحتمل حياته فلقد جرد من كل شيء : من حق مرافقة جثمان والده الى القبر ، ومن اشيائه الشخصية ، وجرد من حقه في ان يرى العالم رؤية حقيقية ، رؤية حرة ، وحينما أصر على ذلك اعتبره الجميع مجنونا ، حتى موريتز لم يتقبل كلماته ، وحينئذ اختار الموت فاخترق حدود المعسكر وانتهى حينما انطلقت رصاصات الحرس .

لقد طوى الموت كلا من القس كوروغا وولده تريان ، وانتحر ايودغو ايوردان حينما تثبت من هزيمة المانيا ، كذلك اختفت هيلدا زوجة موريتز الثانية النازية ذات العواطف الميكانيكية ، اما الذين عاصروا ختام الرواية فانهم موريتز الذي قضي ثلاثة عشر عاما ينتقل من معسكر الى معسكر ثم عاد بعدها الى زوجته سوزانا التي تحمل معها طفلين من موريتز وطفلا ثالثا من الروس الذين اغتصبوها اكثر من مرة قبل ان تصل الى منطقة الاحتلال الامريكية . ولا يكاد موريتز يستقر ساعات مع زوجته حتى يطلبوا جميعا الى التطوع لان امريكا تجند حملة من رعايا الدول الشرقية ضد روسيا . انها الحرب الجديدة على الابواب وكل فريق يزعم بانه رائد المدنية . وتلتقي الاسرة في مكتب التجنيد بايليو نورا ويست زوجة تريان التي تعمل في المكتب مع الملازم الامريكي لويس الذي يرسم لنا بشخصيته صورة عن رجل الشارع الامريكي الذي يثق بسياسة بلاده وان هذه السياسة ستنتصر للمدنية والانسانية فيراهن ايليو نورا على ان الجميع متحمسون للتطوع تحت اللواء الامريكي . وحينما يصرح موريتز كاذبا بانه يتطوع مختارا يبدو السرور على وجه الضابط ويتقدم ليلتقط صورة لموريتز طالبا منه ان يبتسم ، وتنهمر دموع موريتز ، دموع الالم والعذاب ، لتفضح الموقف .

على هذا النحو تنتهي الرواية

***

كتب المفكر الفرنسي السيد غابرييل مارسيل في تقديمه للترجمة

صدر حديثا

نزار قباني

شاعرا وإنسانا

دراسة وافية بقلم

محيي الدين صبحي

الثمن ليرتان لبنانيتان

دار الآداب ـ بيروت

الفرنسية من الرواية ما يلي « هناك مجال واسع للتفكير في ان المثالية جنحت الى التمادي في الاضرار منذ اللحظة التي فقدت فيها اتصالها مع الوحي العلوي اللحظة التي انفصلت فيها عن مذهب القديس يوحنا المتعلق «بالفعل» اللحظة التي اتجهت فيها نحو تأليه الانسان عن طريق الانسان . ان اباطيل النظرية الماركسية لم تصبح ممكنة الا اعتبارا من اللحظة التي اصبحت تلك العبادة الدنسة مقبولة من عديد من الاشخاص ، مازالوا عاجزين عن ادراك نتائجها الرهيبة » ويمكن لنا ان نضيف في اتجاه افكار السيد مارسيل ، ان تلك العبادة « الدنسة » حينما اصبحت رائجة مهدت الى تقبل التكنوكراسي في المجتمعات الغربية ، وبذلك نكون قد وقعنا في تناقضات اليمة كما حدث للسيد مارسيل، وقبل كل شيء نكون قد ابتعدنا كثيرا عن روح السيد جورجيو وافكاره وذلك لاننا كالسيد مارسيل ، نكون قد فرضنا وجهة نظر وتفسيرات غريبة على الرواية ، والخطأ الثاني الذي نؤخذ به في تاريخ الفكر هو ربط النزعة الانسانية بالنزعة المثالية وتدريجيا بالواقعية المادية وعلى وجه التحديد بالمادية التاريخية ، فاذا كانت المثالية قد اعتبرت ان الوجود من طبيعة فكرية او عقلية وحسب فان من الواضح ، ان النزعة الانسانية ليست ملزمة بان تتقيد بهذا الموقف ، كما انها ليست ملزمة بالوقوف الى جانب التفسير الماركسي ، يجب اذن لكي تفهم نزعة المؤلف الانسانية ان نتجه بانظارنا الى سقراط او الى ديكارت ، فنعتبر الانسان كشخصية حية كتاليف رائع للروح والمادة والنفس والجسد ، من دون ان نتحيز الى اي من المواقف المتطرفة .

ينبغي اذن لكي نحدد هذه « الانسانية » ان نتساءل عما اذا كان يمكنها ان تقف على قدميها بمعزل عن الدين وعن مذهب القديس يوحنا ، وعن اي اتجاه صوفي معاصر ومن دون ان تكون عرضة للانهيار في تجريدات هيجل او في اباطيل الماركسية ، ولذلك ينبغي ان ننفي عن الوجود الانساني زعم هيجل انه من طبيعة فكرية وزعم ماركس انه من طبيعة مادية وزعم السيد مارسيل ان هذا الوجود نسبي الى الوحي العلوي وان كنا بذلك نقترب كثيرا من برغسون وسارتر ، لكن المهم هو اننا نكون قد نظرنا الى الحقيقة الانسانية باعتبارها شاملة مطلقة تقوم على الحرية والابداع والتطور ، ومن دون ذلك لا يمكن الا ان نغمز من جانب الكرامة الانسانية وقداسة الشخص اللتين تؤلفان قاعدة افكار السيد جورجيو وبكلمة تريان .

لقد ساهم الدين في خلق النزعة الانسانية ولكنه بهذه المساهمة زرع الطريق بمسائل عده منها : علاقة النسبي « الانسان » بالمطلق « الله » ومشكلة الحرية وعلاقة الله بالعالم وهي مسائل ما تزال موضع جدل ، يضاف الى ذلك ان الدين لم يقدم حلا مقبولا للمسائل التي خلقها تقدم العلم والفكر ، وهذه الحقائق هي ما جعلت القس الكسندرو كوروغا يصرح « ان الكنيسة لا تستطيع حماية المجتمعات ، بل انها تضمن سلام الاشخاص الذين تتالف منهم تلك المجتمعات » (ص ٥٨)

اين هو الحل اذن لهذه المشكلة التي تدعو الى اليأس ؟ يرى السيد مارسيل في تقديمه ان الاشعاع الوحيد الضئيل الذي يلتمع في ثنايا هذا الكتاب اليائس العظيم هو الركون الى الامل الذي اختص به القس كوروغا «وفي النهاية يشفق الله على الانسان كما قال من قبل مرات عدة ، كما حدث في سفينة نوح فوق الامواه ، فيطفو ذلك البعض من بني الانسان الذين ظلوا على انسانيتهم فوق دوامات ذلك الفراغ الجماعي الهائل.»

لنتصور اذن ، كي نحكم على قيمة هذا الامل ،كيف ان الثورة التيكنو كراسيه التي تدمر الناس والمجتمعات وكل شيء ، سوف تترك ، بطريقة ما، افرادا قلائل ..! فاذا تساءلنا عن السبب الذي من اجله بقي هؤلاء ، اجابنا السيد مارسيل : انها العناية الالهية التي انقذت القليل من الطوفان وبديهي اننا لن نقبل اجابة من هذا القبيل الا بدافع الايمان وحده .

من الافضل اذن ان نترك السيد مارسيل ونتبع تريان كوروغا الذي يقول صراحة : « ان هذا الانهيار في المجتمع الآلي ، سيعقبه اعتراف بالموهبات الانسانية والعقلية ، وسيشرق هذا النور العظيم من الشرق ولا شك ، من آسيا ، ولكن ليس من روسيا . ان الروس قد انحنوا خاضعين امام نور الغرب الكهربائي ، فلم يبلغوا تلك المرحلة ، ولن يعيشوا ليروا الاشراق ، سيكتسح رجل الشرق المجتمع الالي ، وسيستعمل النور الكهربائي لانارة الشوارع والبيوت ولكن لن يبلغ به مرتبة الرقيق ، . ولن يرفع له معابد وصوامع ، كما هو الحال اليوم ، في بربرية المجتمع الالي الغربي ، انه لن يضيء بنور النيون خطوط الفكر والقلب ، ان رجل الشرق سيجعل من نفسه سيدا للالات وللمجتمع الالي مستعينا بعقله ، كما يستعين رئيس الفرقة الموسيقية بعبقريته المستمدة من الجرس الموسيقي. لكنك لن تصل الى تلك المرحلة ، لاننا سنحيا في الزمن الذي يخشع فيه الرجل امام الشمس الكهربائية ، كالبربري المتوحش » (ص ٥٧)

يمكننا ان نكتشف هنا ، ازاء هذه النبوءة التي تلخص المشكلة وتطرحها بمستواها الانساني الشامل ان «الساعة الخامسة والعشرون» لا يمكن ان توصف بانها كتاب يائس عظيم او اذا افترضنا سلفا ، كما فعل مارسيل ، ان المدنية المعاصرة شيء يخص اوربا وحدها وحينئذ نرى انفسنا تجاه مجتمعات بلغت الحدود القصوى من التوافق مع الالة وقوانينها وطبيعتها ، وسنرى ظاهرة واحدة تغزو هذه المجتمعات رغم اختلاف اساليب الحكم واشكاله فيها ، وهذه الظاهرة هي سيادة التيكنو كراسيا (حكم الالية) التي تستبدل الاشخاص الاحرار المبدعين بالمواطنين فتقضي على ما هو انساني ويكون الخلاص في حال كهذه معجزة يعجز عنها الانسان.

اذن لم يعد هناك غير الشرق من يستطيع ان يحرر الانسانية من هذا الطغيان الاعمى للالية الذي يسبب الحروب والنكبات ويضع كل ما ابدعته المدنية موضعا خطأ ، ولن يكون ذلك الا متى تيسر النهوض لهذا الشرق ، حينما يتحرر من الاستعمار والانحطاط الطويل ويدخل كعنصر فاعل في المدنية الحديثة ، غير اننا ، بدافع من الاخلاص الى الحقيقة ، لا يمكن ان ناخذ نبوءة المؤلف على انها الحل النهائي للمشكلة ، وذلك لسببين

اطلب ((الآداب))

في المملكة المغربية الشريفة

من وكيلها العام السيد احمد عيسى صاحب

مكتبة الوحدة العربية

١٧ شارع الملكة (الاحباس)

الدار البيضاء

جوهرين : اولهما ان الشرق ما زال حتى ايامنا هذه متخلفا عن المدنية الحديثة تضرب فيه الفوضى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والدينية ويغلفه ضباب من الاوهام والخرافات مما يعيق نمو العقل ويشل النشاط ويضع المصاعب في طريق التقدم ، اننا في الشرق امام محاولات عديدة واقتراحات متضاربة . ولكن يمكن القول بان القادة في مجالات الفكر والسياسة متفقون على ان خير الطرق للتقدم هي باتباع الروح الوضعية وان كان معظم هؤلاء لم يزياوا من اذهانهم فكرة المحافظة على « الروحانية » غير ان دخول الالة الى آسيا والسير نحو مجتمعات صناعية، سوف يزرعان القاره بنفس المشاكل القائمة في الغرب وسوف نجد اسيا نفسها في يوم مقبل امام اوضاع مماثلة للاوضاع القائمة في الغرب بحيث تقترب من المشكلة وتحس بالازمة ، وقبل ذلك لا يمكن باية حال ان نطلب من آسيا شيئا او ان نتوقع منها شيئا .

اما السبب الجوهري الثاني فانه يرتبط بموقف آسيا امام المشكلة وطبيعة رد الفعل الذي سيصدر عنها ، هل سيختلف في طبيعته عن رد الفعل الاوروبي ؟ فاذا اتبعنا الامال التي يحلم بها المؤلف كنا امام شخصية جديدة تضع ما هو انساني كقاعدة في بناء مدنيتها .

وعلى اية حال فقد علمنا ديكارت ان الناس متماثلون في الموهبة والعقل ولكنهم مختلفون في الارادة ولذلك يمكننا الا نقصر الكلام على آسيا لان الناس يملكون امكانات متماثلة في الغرب والشرق . فالمسالة اذن هي مسالة تحديد معنى المدنية سواء اكان هذا التحديد اوربيا ام اسيويا .

لقد عني بهذه المشكلة مفكر فرنسي معاصر هو السيد جورج باستيد(1) الذي راى ان المدنية في مضمونها تقوم على الاسس التالية : الاخلاق والثقافة والطبيعة ، وعلى توازن انساني بين هذه القيم الثلاث .

لقد درس باستيد المدنية من وجهة نظر المذاهب الكبرى فوجد انها تقيمها اما على الاخلاق واما على الثقافة واما على الطبيعة . اما المدنية المعاصرة القائمة على العلم ، والتي تدعمها الذرائعية من احد جانبيها والشيوعية من جانبها الاخر فانها تقوم على الاسس التي اقترحها فرنسيس بيكون والتي تعطي السيادة الى الطبيعة وتوجه الفكر وجهة تجريبيه وتحكم القوانين في المجالات المختلفة للطبيعة والاجتماع فاذا اردنا ان ننتهي من الازمة التي تعانيها المجتمعات المعاصرة وجب ان نقيم توازنا في مدنيتنا بين الطبيعة والثقافة والاخلاق .

لعل هذا العرض يقترب بنا من الاسئلة التي طرحت منذ بداية هذه الدراسة : كيف يحصل التوازن بين العلم والانسان ؟ ما هي قيمة العلم ؟ ما هي قيمة الشخص امام العلم ؟ انه لا يحق لنا ان نختار بين موضوعية العلم وذاتية الشخص اختيارا مطلقا ، ففي موضوعية العلم قسط عظيم من الذاتية ، وان الحتمية المطلقة للعلوم الفيزيائية تعارضها لا حتمية مطلقة في العلوم الميكروفيزيائية . وفي الشخص تلقى تاليفا حيا بين النفس والجسد ، بين الذات والموضوع . واذن يمكننا ان نبتعد نهائيا عن الموقف الرومانسي الخاطيء المعارض للعلم والالة لاننا في عالم المدنية الحديثة لا يمكن الا ان نحيا الى جوار الالة فاذا كان التكنيك قد سبقنا بمراحل واسعة فان هذا لا يبرر انكاره ولا احتقاره بل يستدعي ان نقوم بحركة انسانية حية واسعة لنلحق بالتكنيك ونضفي عليه طابعنا كاشخاص .

ولعل هذا هو ما قصد اليه مفكر فرنسي اخر هو السيد اما نويل مونيه « اننا ندرك ، تحت هذه الاضواء المعنى العميق للنمو الصناعي . ان الانسان وحده ، يخترع الادوات ثم يربط ما بينها في منظومة من الالات تصبح خاضعة لتصرف الانسانية . لقد جن جنون الناس في القرن العشرين بهذه المجموعة الجديدة القوية الى ابعد حدود القوة والتي انشاوها لانفسهم. لا شك ان قدرة الالة على التجريد قدرة مفزعة ، انها حينما تقضي على العلاقات الانسانية ، انما تجعلنا ننسى اكثر من اية قوة اخرى ، اولئك الرجال الذين تسخرهم ، والذين تسحقهم في بعض الاحيان . فمن جراء موضوعيتها الكاملة الى اقصى حدود الكمال ، ومن جراء كونها قابلة بمجملها للتفسير انما ابعدتنا عن عادة الحياة الداخلية ، وعن الاسرار ، وعن كل ما ليس قابلا للتعبير عنه . انها تضع في ايدي البله وسائل لا يحلمون بها ، وتبالغ في تسليتنا ، لتلهينا عن وحشيتها ، وفي الحالة التي تترك فيها لثقلها الاعمى ، تصبح قوة هائلة تعمل للقضاء على عملية التشخص . بيد انها لن تكون كما وصفنا الا اذا انفصلت عن الحركة التي تستثيرها ، بما هي اداة لتحرير الانسان من عبودياتها الطبيعية » (1)

ولعل هذا هو الحلم الذي سعى وراءه السيد جورجيو وبطله تريان « ان رجل الشرق سيجعل من نفسه سيدا للالات وللمجتمع الالي ، وسيستعمل النور الكهربائي لانارة الشوارع والبيوت ولكن لن يبلغ به مرتبة الرقيق ولن يرفع له معابد وصوامع كما هي الحال اليوم » وهو ايضا حلم الانسانية التي تسعى بكل طاقاتها الفكرية والانسانية للتخلص من عصف البربرية المعاصرة ، ولاسترداد حريتها وكرامتها .

مصياف — سامي عطفه

(1) راجع جورج باستيد « المدنية ، سرابها ويقينها » الدكتور عادل العوا ، مطبعة جامعة دمشق ١٩٥٧

(1) .. امانويل مونيه « هذه هي الشخصانية » ترجمة تيسير شيخ الارض صفحة ٤٨

مجموعة قصص انسانية

قصص مختارة من الادب الانساني العالمي

	صدر منها	ق.ل
١ ـ	مولد انسان(مكسيم غوركي)» ترجمة سهيل ايوب	١٠٠
٢ ـ	توماس غورديف اول غوركي ترجمة بهيج شعبان	١٧٥
٣ ـ	توماس غورديف ثاني غوركي ترجمة بهيج شعبان	٢٠٠
٤ ـ	المساكين « دستويفسكي » ترجمة بهيج شعبان	١٧٥
٥ ـ	الاغاثة ترجمة : سهيل ايوب	١٥٠
٦ ـ	سنان وصلاح لدين تاليف : عارف تامر	٢٠٠
٧ ـ	بخاري تاليف صدر الدين عيني	٣٠٠
٨ ـ	عناقيد الغضب ترجمة : الدكتور فؤاد ايوب	٦٠٠
٩ ـ	وراء الرغيف « مكسيم غوركي » ترجمة بهيج شعبان	٥٠٠
١٠ ـ	البيت الكبير : تاليف محمد ديب	٢٥٠

الناشر : دار بيروت للطباعة والنشر